سعد زغلول وقيادة ثورة ١٩١٩
قراءة في مذكراته

د/ آمنة حجازي
باحث بمركز تاريخ مصر المعاصر
بدار الكتب والوثائق القومية

سعد زغلول وقيادة ثورة ١٩١٩

قراءة في مذكراته

د/ آمنة حجازي(*)

الملخص

مثلت مذكرات سعد زغلول مصدراً للأحداث المهمة التي جرت في مصر فى فترة ثرية من تاريخنا المعاصر ، وتحاول هذه الدراسة طرح إشكالية محددة حول طريقة فهمنا لشخصية سعد زغلول وزعامته في ضوء مذكراته الشخصية : فهل عبرت مذكرات سعد زغلول عن رؤية واضحة المعالم للثورة المصرية في عام ١٩١٩ ، وهل ما قام به الشعب المصري من ثورة كانت بتحريض من سعد ورفاقه أم أنها انطلقت بشكل شعبي جماهيري اتسم بالعفوية والتلقائية؟

وهل كان وجود سعد على رأس ثورة لها أهميتها الكبرى ليس على المستوى الوطني فقط ، بل وعلى المستوى العربي والإفريقي والآسيوي أيضاً ، وهل كان عن استحقاق وجدارة لمكانة سعد المعلومة عند السواد الأعظم من المصريين لما اشتهر به من مواقف وطنية عديدة تحسب له؟ أم كانت تفضل من الجماهير المصرية – على زغلول – التي أشعلت بحماسها ثورة من أعظم الثورات القومية ؟ وكل هذا هو ما سوف نحاول معالجته هنا من خلال قراءة تحليلية لما سطره سعد زغلول في يومياته عن تلك الثورة .

(*) باحث بمركز تاريخ مصر المعاصر .

Abstract:

Saad Zaghloul's diaries represented a source for the important events that took place in Egypt in a rich period of our contemporary history , 1919. And was the revolution that the Egyptian people carried out at the instigation of Saad and his comrades, or was it launched in a popular mass fashion that was characterized by spontaneity? Was Saad's presence at the head of a revolution of great importance not only at the national level, but also at the Arab, African and Asian levels. was it due to Saad's knowledgeable position among the vast majority of Egyptians; because he was famous for his many national stances that counted for him? Or was it preferred by the Egyptian masses to Zaghloul whose enthusiasm ignited one of the greatest national revolutions? Which we will try to address here through an analytical reading of what Saad Zaghloul wrote in his diaries about that revolution.

مثلت مذكرات سعد زغلول مصدراً للأحداث المهمة التي جرت في مصر فى فترة ثرية من تاريخنا المعاصر ، وقد اتفقت العديد من الآراء[١] ، على أن سعد كتب مذكراته لنفسه ، ولم يخطر بباله أن أحداً سيطَّلع عليها يوما ما ، لهذا نجده يصارحها دوما بأخطائه ، ويسجل بها هفواته وعيوبه ، ويأخذ في لوم نفسه مراراً وتكراراً بكل ما أوتى من قوة . ومن خلال ما سطره قلمه استطعنا أن نتعرف على العديد من أفكاره وطموحاته وعلاقاته ومواقفه تجاه العديدمن القضايا العامة والخاصة .

وخطَّ سعد في عدد كبير من الكراسات – وصل إلى ٥٢ كراسة ، تجاوزت عدد صفحاتها الثلاثة آلاف ورقة أحداث حياته ونبضات قلبه وخلجات نفسه . ويومياته وإن كانت غير منتظمة في أحيان كثيرة ، إلا أنها مثلت سجلاً حافلاً بتاريخ مصر المعاصر ، فلم يكن سعد شاهد عيان فقط ؛ بل كان أيضًا صانع للعديد من المواقف والقرارات ، ومن المسلم به أن لمذكرات الساسة والزعماء أهمية كبيرة ؛ بحكم مشاركتهم الفعلية في أتون الأحداث . إلا أن الأخذ منها يتطلب من الباحث المدقق المزيد من الحرص والفهم لمجريات الأحداث التاريخية وملابساتها ، وربطها بشخصية صاحبها[٢] . ومن هنا تأتي أهمية تلك اليوميات التي سطرها سعد زغلول كمادة خصبة ، ومصدر مهم لأحداث كثيرة فى تاريخ مصر المعاصر .

وقد صدرت هذه الكراسات في اثنى عشر جزءاً عن مركز تاريخ مصر المعاصر الذي تولى منذ سنوات طوال مهمة قراءتها وتحقيقها ونشرها تباعا ، حتى تم الانتهاء منها مؤخرا ، وأصبحت متاحة بين يدي المهتمين بتاريخ مصر . وقد قام على هذه المهمة الوطنية ؛ فريق عمل قاده أساتذة أجلاء مشهود لهما بالدقة والتفاني في العمل : د . عبد العظيم رمضان فى مرحلة ، ود . لطيفة محمد سالم فى مرحلة أخرى ، وإن كان قد تغير فريق العمل فى المرحلة الثانية عنه فى المرحلة الأولى بحكم الفترة الزمنية التي استغرقتها قراءة وتحقيق ونشر هذه المذكرات . وكان لي شرف الاشتراك في هذه المهمة في الثلاثة أجزاء الأخيرة ، وقد سهلت لنا هذه المذكرات المنشورة مهمة إعداد هذه الدراسة .

ويجب علينا التنويه بأن هناك عدداً لا بأس به من الدراسات التاريخية التي تناولت بالدراسة ثورة عام ١٩١٩ ، لكن القليل منها اعتمد بالأساس على مذكرات سعد في دراساتهم[٣] ، في حين كانت المذكرات وغالبية الدراسات أحد المصادر العلمية لها ، وقد انقسمت الآراء حول زعامة سعد زغلول لثورة ١٩١٩ بين مؤيد ومعارض .

وتحاول هذه الدراسة طرح إشكالية محددة حول طريقة فهمنا لشخصية سعد زغلول وزعامته لثورة ١٩١٩ في ضوء مذكراته الشخصية : فهل عبرت مذكرات سعد زغلول عن رؤية واضحة المعالم للثورة المصرية في عام ١٩١٩ ؛ وهل ما قام به الشعب المصري من ثورة كانت بتحريض من سعد ورفاقه أم أنها انطلقت بشكل شعبي جماهيري اتسم بالعفوية والتلقائية؟ وهو ما سوف نحاول معالجته هنا من خلال قراءة تحليلية لما سطره سعد زغلول في يومياته عن تلك الثورة .

ولأجل معرفة إلى أي مدى عبرت مذكرات سعد زغلول عن رؤية واضحة للثورة ، يتعين علينا في البداية ؛ القول إن مصر – وحسبما ورد في العديد من التقارير[٤] – تحولت إلى أحد أهم ميادين القتال ، حيث حشدت فوق أراضيها الجيوش الجرارة وعمتها الحرب بكل مظاهرها ، ومن ثم خضعت البلاد المصرية لجميع أحكام وتقلبات تلك الحرب إلى حد أن أصبح مصيرها مقرراً بما ستصير إليه الأمور عند وضع قواعد الصلح .

فثمة تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعسكرية ألمت بالقطر المصري من جراء قيام الحرب العالمية الأولى ، حتى باتت خريطة المجتمع المصري سواء أثناء الحرب أو بعدها غير مستقرة لفترة ليست بالقصيرة .

وكان السواد الأعظم من الفلاحين المصريين قد عانى الأمرين من جراء تسلط السلطات البريطانية ، والذي ترجم إلى مصادرة حيواناتهم ومحاصيلهم الزراعية لصالح بريطانيا العظمى وجيوش الحلفاء في الشرق الأوسط وأوروبا[٥] .

علاوة على ذلك كان الرجال يساقون مربوطين بالحبال الغليظة من أوساطهم

صفًا حتى يصلوا إلى المركز ويحبسون في غـــرف المتهمين ثم يرحلون إلى فلسطين حيث ميادين القتال «في مشهد يهين النفس ويفتت القلب»[٦] ، وكان ذلك سدًا لاحتياج الجيوش المقاتلة من الأيدي العاملة .

وزاد الأمر سوءًا أن الموظفين المصريين بمساعدة مأمورين ومديرين وحكمداريين وغيرهم من عمد ومشايخ القرى كانوا الأداة المنفذة للسلطة العسكرية البريطانية خلال سنوات الحرب[٧] . ولا ريب أن ذلك كان سببًا رئيسًا في اشتعال الحركة الوطنية ؛ بعد أن ذاقت ألسنة معظم المصريين مرارة الحرب العالمية الأولى .

على أية حال فإن بين إعلان الحرب العالمية الأولى في أغسطس ١٩١٤ وإعلان الهدنة في ١١ نوفمبر ١٩١٨ وانتصار بريطانيا وحلفائها ، كانت هناك محطات كثيرة عرفتها مصر بدءًا من إعلان الأحكام العرفية ؛ وفرض الرقابة على الصحافة وصدور قانون التجمهر ؛ ومروراً بإعلان الحماية البريطانية وعزل الخديو عباس حلمي الثاني وتولية حسين كامل سلطانا على مصر ، ووصولا إلى تولية أحمد فؤاد عرش البلاد خلفًا لأخيه بعد وفاته ، ووصولاً إلى إعلان الرئيس الأمريكى ويلسون لمبادئه الأربعة عشر في يناير ١٩١٨ عقب انتهاء سنوات الحرب إلى الانخراط فى أتون الثورة المصرية عام ١٩١٩ .

سعد والزعامة

كان فوز سعد زغلول بعضوية الجمعية التشريعية في ديسمبر ١٩١٣ وما كانت تمثله تلك الهيئة الرسمية شبه النيابية وقتئذ من أهمية ؛ ونيابته عن المصريين فيها كانت أهم نقطة تحول في حياته السياسية ؛ أسفرت عن بروز زعامته الشعبية [٨] . التي اكتسبها من موقعه الجديد الذي اختاره لنفسه ؛ وهو ملازمة أبناء جلدته من المصريين في جميع ثكناتهم وحركاتهم ؛ يشعر بكل ما تعرض له أشقاء الوطن من ظلم واضطهاد ؛ وصل إلى حد الاعتقال والنفي ، كل ذلك هيأ له أن يكون متحدثًا بلسان الأمة المصرية حال تقرير مصيرها ، واستمرت هذه النظرة لسعد من أبناء مصر إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى ؛ ولم تتوقف عن متابعته وهو يكافح ويناضل مع

زملائه بعد انقضاء سنى الحرب للحصول على حق مصر فى الاستقلال .

علاوة على هذا كان الفوز طوق النجاة له من الحالة النفسية التي عاشها بسبب الفراغ الذي أحاط به في وقت كان يتطلع فيه لوظيفة تملأ هذا الفراغ ، لذا كان انتخابه لعضوية الجمعية التشريعية فرصة أتاحت له الالتصاق بأبناء الأمة المصرية معاهداً نفسه على خدمتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ومن هنا استمد قوته هذه المرة ليس من قوة المحتل ولا من قوة الخديو ، ولا حتى من قوة حكومة كان ينتظر لولوج مناصبها ليستعيد من خلالها الهيبة والسلطة والقوة التي طالما يتمنى الاحتفاظ بهم[٩] . ويتضح ذلك من خلال تقليب أوراق مذكراته التي اتسمت بنوع عال من الشفافية ومحاسبة النفس قلما نجده في المذكرات الشخصية .

وينم رصدنا لما كتبه سعد في يومياته في السنوات التي سبقت الثورة عن شخصية مهمومة بقضايا الوطن ؛ نبدأها مع ربيع عام ١٩١٥ ، عندما تحدث بكل صراحة عن بعض الهفوات التي وقع فيها السلطان حسين كامل ، الذي كان يصرح مراراً وتكراراً عن ضرورة حفظ استقلال مصر – بالطبع يقصد سعد – قبل توليه العرش ، يغاير ما يقوله ويرى أن مصر لا تستحق ذلك الاستقلال! (والسلطان ، الذي كان يجاهر قبل توليته بأنه يرفض العرش إذا لم يكن مصحوبا بتوسيع اختصاصات الجمعية التشريعية وحفظ استقلال مصر . اليوم يسخط الآن كل السخط على من يبدي أقل اشمئزاز من عدم إعطاء شيء مفيد لنواب الأمة ، ويقول بأن هذه الأمة لا تستحق شيئًا من الاستقلال ، وأن الجمعية ليست أهلا للرأي القطعي!) ، ويتعجب سعد من هذا القول مشيراً ؛ «ومن العجيب أني أسمع هذا القول من الوزراء ، ومن المقربين منهم ، يلوكونه بألسنتهم ، ولا يشعرون بأن هذا حكم عليهم أنفسهم ، وأنهم يدلون بهذا القول على ضعف شعورهم ، وكثرة طمعهم ! ولو علموا أن ما يمنعونه عن أهلهم بمثل هذا القول ، لا يعود إليهم ، بل يرجع الأمر فيه إلى الأجنبي عنهم ، لكفوا عن هذا المقال!»[١٠] .

وقد رسم سعد صورة حية للمجتمع المصري في ظل الحماية وإحكام سيطرة بريطانيا على البلاد في الحرب العالمية الأولى وممارسة سلطاتها العسكرية أشكالاً للعنف والاضطهاد كانت تزداد يومًا بعد يوم ، وواكبها ضعف شديد وتضاؤل من سلطة السلطان حسين كامل وحكومته ، وتبعها انتقال العرش إلى السلطان أحمد فؤاد .

نجح سعد كما نجح غيره الكثيرون في وصف معاناة عامة المصريين ، خاصة على الصعيد الاقـــتصادي الذي شهد تدهوراً كبيراً ، فيشـير في منتصف شهر يناير عام ١٩١٧ إلى أزمة القطن وتأثيرها فى المجتمع المصري حتى إنه ذهب إلى أنه قال : لا حديث للناس إلا في مسألة القطن ، وتعسف الحكومة بعد عسفها في تبرير ما ارتكبت من تقييد حرية التجارة ، وحرمان المزارعين من فوائد أملاكهم ، والتجار من ثمرة تجارتهم ، والقضاء عل الكثير من الوسطاء بين البائعين والشارين بالبؤس وســوء المصير[١١] . ويتعجب سعد من أن الحكومة المصرية أصبحت تاجرة ومضاربة في آن واحد ، وتزيد في القسوة فتصادر المحاصيل وتشتريها بثمن قليل بهدف بيعها بثمن مرتفع ، مما يترتب عليه من حرمان أفراد الشعب من الحرية في معاملتهم[١٢] .

استغرق سعد زغلول فى الجدال مع بعض رموز المجتمع حول العلاقة مع سلطات الاحتلال إبان الحرب أو فى ظل الحماية لإيجاد مخرج من تلك الأوضاع المتردية من جهة ، والتفكير في مصير مصر بعد الحرب من جهة أخرى .فأثناء حوار له مع فارس نمر ؛ ربط سعد مساعدة مصر لإنجلترا بإعلان الأخيرة استقلال مصر .

ويتأرجح سعد بين مشاعر التفاؤل والتشاؤم والسخرية فتارة يعول على صلاح الأحوال عندما يتوفر لمصر حاكم مهتم بشئونها ، ليس بمعزل عن شعبه ، وفي ظل حكومة يرأسها وزير صالح لإدارة شئونها ، فتحدث الألفة ويتفق المجموع على مقصد واحد[١٣] . وتارة أخرى يعبر عن النظرة الثانية فيقول : «إن الحرب إذا انتهت بانتصار أحد الفريقين المتحاربين ، فليس لهذه البلاد نصيب في الاستقلال ، وليس لُحر الشمائل إلا أن يرحل عنها ، لأنه يصبح غريبًا فيها ، ذليلًا مهيض الجناح »[١٤] ، أما

نظرته الأخيرة فملئها السخرية عندما وصل لمسامعه أن إنجلترا ستعطي مصر استقلالها ، وذلك رغبة لمطلب أمريكا فيعلق بلهجة الساخر : «إن كان ذلك صحيحًا : عاشت أميركا ، وعاش الإنجليز جميعًا!»[١٥] .

ويتضح تلاحما في المشاعر بين سعد والجماهير تعبر عنه المذكرات بشكل جلي ، فمع تزايد الضغط على الفلاحين ؛ يزداد سعد حزنًا بل وإحباطًا وكآبة أيضًا ، ويكشف عن نوايا إنجلترا الراغبة في إرغام المصريين على قبول الحماية والإعلان عن ذلك ، وذلك لغرض خبيث وهو تقديم موافقتهم وقبولهم لهذا الوضع عذراً في مؤتمر الصلح عند انعقاده[١٦] .

على أية حال نجد موقفًا قد يحير البعض عند تحليل مواقف سعد من ذلك التلاحم ؛ أنه في بعض الأحيان يخبو وينطفئ شيئا فشيئا ، ومن ذلك عندما أعلن في صيف عام ١٩١٧ أنه قرر الابتعاد عن الظهور ، ويجد هو لنفسه مبرراً لذلك خشية أن يؤول أعدائه ذلك بخروج عن طاعة الحكومة ومعارضة السلطة ؛ وكما خط بيده قائلا : «فحياة فرد ، مهما كان عظيمًا ، لا قيمة لها الآن ، وعلى الخصوص إذا كانت حياة مصر ، وعلى الأخص إذا كان محسوبًا من المعارضين !» ، وأوجد لنفسه الحل في البقاء في عزبة مسجد وصيف «ولنا فيمن نفوا واعتقلوا أكبر عظة! ولهذا أفضل البقاء هنا الآن حتى تنجلي هذه الغمة ، ويكشف اللّه الكرب عن هذه الأمة»[١٧] .

على أية حال ؛ كان موقفه هذا الذي ما لبث أن تبدل بعد عدة أيام قليلة كان نابعًا من قلقه وخوفه من كثرة من نفي واعتقل كم أثبت هو ذلك في كراساته .

سعد وديناميكيةالحراك الجماهيري :

وتأتى أحداث عام ١٩١٨ كما يسردها سعد حاملة الكثير ؛ فقد وقعت البلاد تحت مظلة أزمة مالية جديدة استمرت حتى انتهاء الحرب ، وما خلفته من أثر سيئ للغاية على الحالة الاقتصادية للبلاد ، حيث ارتفعت أسعار القطن إلى مستوى كبير جدا إلى جانب هبوط شديد في أسعار الحاصلات ، فكانت النتيجة الحتمية لكل ذلك هو حدوث خلل واضطراب في الميزان الاقتصادي . انعكس عل السواد الأعظم

من المصريين ؛ ومن ثم كانت السياسات الزراعية التي وضعت لخدمة المصالح البريطانية في المقام الأول عرقلت جميع المكاسب التي استطلع كبار ملاك الأراضي من المصريين الحصول عليها في أوقات بعينها مثل تلك الأرباح المكتسبة من ارتفاع أسعار القطن المصري .

ففي مارس وتحديداً السابع عشر منه يشير إلى سخط الناس من قرار تحديد أسعار القطن ، ويشير إلى تعليق حرمه على ذلك بقولها له : (أحمد اللَّه على أنك لم تكن اليوم في الحكومة ، إلا وكنت في هم وغم وحيرة ، فإما أن توافق على هذا القرار فتجلب سخط الأمة ، وتستنزل لعناتها عليك ، وإما أن تعارض فيه فتعرض نفسك لغضب الأقوياء وانتقامهم منك! فالحمد للَّه على الانزواء ، وعلى أن نكون مظلومين لا ظالمين!) [١٨] . فمن المعلوم أن كثيراً ما كان سعد يمني نفسه بوزارة ، ويكثر من لوم نفسه على تطلعها ذلك ، وتلك العبارات من صفية زغلول تنم على اهتمام وحرص على الحفاظ على مشاعر الجماهير تجاه زغلول نفسه ، فمكانته بين المصريين كانت واضحة تماماً حينذاك .

ومع تصاعد حدة التعسف والقهر نجد اختطاف الناس من الأسواق والطرقات والمساكن في القرى ، ومن المساجد والمحاكم ، وإرغامهم على كتابة طلبات بالتطوع في الخدمة في الجيش البريطاني ، ومن يرفض منهم يُضرب حتى يختم ، ووصل الأمر أن بعض المراكز أقامت ختاماً على باب المركز ليصنع ختماً لكل من ليس له ختم ![١٩] .

ووصل الأمر كما رسم سعد الصورة بمنتهى الدقة ؛ إلى أنه في بعض الأماكن (أطسا) التي رفض فيها بعض المصريين الختم ؛ بعثت قوة من العساكر والخفراء فساقتهم مكبلين بالحديد إلى المركز ، وعندما وصلوه ضُربوا حتى ختموا ، وفي أماكن أخرى (فارسكور) تصاعد الأمر ووصل إلى حد مشاجرة بينهم وبين الجمهور ، أُطلق فيها أعيرة نارية أدت إلى قتل ثلاث نساء ، ويهاجم سعد بكل شراسة الحكومة ؛ قائلا : «فالتجنيد القانوني منعه الوزراء تهربا من المسئولية الظاهرة ، أما التجنيد الفرضي حاصل بكل طريقة من طرق الجبر والإكراه!» [٢٠] .

ويعلق زغلول على طرق التجنيد الإجباري للأهالي تلك بأنها «أشد أنواع مصادرة الأمة في حريتها ، فإنه احتقار لها بإنزالها منزلة الأنعام السائمة!»[٢١] . ونجد مرة أخرى سعد يدور في فلك الجماهير مغاضبًا معلنًا أن ما يحدث حينذاك لم تشهده مصر في أزمنة كانت أكثر فوضى من زمنه وقتذاك ، بل وصل به الأمر أن يلازم ذلك بوقت أيضا لم تكن الحكومة محاربة للأمة أكثر من محاربتها لها آنذاك . وأخذ يعدد حوادث كثيرة اقترفتها السلطة في حق الجماهير ، وينهي هذا التعدد بأنه أدى إلى أن أصبح الناس حيارى في أمورهم[٢٢] ، تلك الحيرة التي ما لبثت – كما سنرى بعد قليل – تتفاعل ديناميكيتها وتتجلى في أروع مظاهرها .

وبعد عدة شهور وبالتحديد في ٢٠ أغسطس ١٩١٨ يلتقي بلطفي السيد ويقول عنه سعد «وقد عاد إلى الضرب على نغمته الأولى من أن مصر لا تستفيد شيئًا من الحرب مهما كانت عاقبتها ،لأن لا دخل لها في المقدمات»[٢٣] .

وفي الثاني من أكتوبر يشير سعد إلى مقابلته مع البرنس عمر طوسون وقول الأخير له : «إني أفكر في أن يقوم من المصريين طائفة للمطالبة بحقوقها في مؤتمر الصلح» . ورد سعد قائلا : «فكرة جميلة جالت في بعض الرؤوس من قبل ، وقد آن الآن أوانها!» ، وأنهى البرنس اللقاء بقوله : «تأمل فيها ، وانظر من يساعد عليها»[٢٤] .

وفي اليوم التالي زار سعد محمد سعيد ، وحدثه في هذه المسألة ، وقابل عدلي بعد ذلك ؛ وتكلم معه في تلك المسألة ، وتوصلت الآراء إلى توسيط قنصل أميركا . وبالفعل فاتح رشدي القنصل ، فلم يجد عنده استعداد للمساعدة ، إنما اقترح عليه سلوك أحد من الطريقين :إما أن تطلب الترك استقلال مصر ، وإما الالتجاء إلى الحكومة الإنجليزية![٢٥] .

وبعد عدة أيام يقرأ سعد في الجرائد أخبار الصلح ، ويعلق قائلا : «ولم نهتد إلى الآن إلى طريقة ، والأولى بنا السكون ، وصرف النظر عن هذه المسألة!»[٢٦] .

وفي الرابع عشر من أكتوبر يتقابل لطفي السيد ومحمد محمود مع سعد الذي تكلم في : «مصر ومستقبلها ، وماذا على أبنائها أن يعملوا لها عند انبثاق فجر النصر

وانعقاد مؤتمر السلام . وخطرت بالبال عدة أفكار ، لكن كلها موقوفة على ثقة الناس بعضهم ببعض ، ولا يوجد من هذه الثقة في نفوسنا شئ . ومادام الأمر كذلك فالأولى الانزواء ، والتباعد عن مهاب الأهواء»[٢٧] . وفى ٢٥ أكتوبر يشير سعد إلى قول عبد العزيز فهمي بأن أحمد عبد اللطيف أكد له : «أن الحماية قدمت مشروعًا بإعطاء مصر استقلالاً داخليًا تامًا ، في مقابلة رضائها بالحماية» ويرى سعد أن من المصلحة جدا – كما أشار عبد العزيز أن تعمم هذه القضية ويعتقدها الناس[٢٨] .

ويجتمع سعد بعد ذلك مع البرنس عمر طوسون أثناء سفرهما من الإسكندرية إلى مصر ، ويدور حديثهما في موضوعات كثيرة ، ويفهم سعد من البرنس أنه يفضل كتابة عريضة تحتوي على مطالب مصر بعد انعقاد مؤتمر الصلح ، وفي أوائل شهر نوفمبر يتقابل كلا من عمر طوسون عند سعد في حضور إبراهيم سعيد ، ومحمد محمود ، وعلي شعراوي ، وعبد العزيز فهمي ، ويبدي الأمير رغبته في عقد اجتماع للمناقشة في حالة مصر وما يجب أن يقدم لها من الخدمة وقتئذ[٢٩] .

وبالفعل شرع سعد في كتابة أسماء الذين يجب دعوتهم ، ثم كتب صيغة الدعوة التي أخذها الأمير لإرسالها ، واتفقوا على أن يحدد الاجتماع خلال أيام قليلة . ويشير سعد إلى أنه خطر في باله هو والحضور أن يقوموا بزيارة السير ونجت ، بهدف كما قال : (نعلمه ضمنا بسفرنا ، ونسأله عن نية دولته فى مصير مصر؟) ، وبالفعل حدد لهم السير ونجت يوم ١٨ نوفمبر موعدا للقاء[٣٠] .

وتدور عجلة الأحداث بشكل سريع ونقترب شيئا فشيئا من خضم الثورة بعد أن تناولنا إرهاصاتها بشكل مختصر . فقد أخذ سعد زغلول يدون تحركات الوفد ونشاطه بشكل سريع جداً ؛ مما ينم على بداية تصاعد الأحداث بشكل جدي ، فيكتب في السابع من ديسمبر عام ١٩١٨ عن تبرعات للوفد . وبطبيعة الحال فإن الحركة السياسية التي بدأت في التكوين آنذاك تتطلب المال ،ويذكر سعد أن الأمير عمر سأله عن مقدار ما جمع من مال ، وزاره وعرض عليه «أنه مستعد لخدمة الوفد كما يريد ، وأنه وضع نفسه تحت تصرفه ، فوعدته بالنظر في ذلك مع إخواني .

وسلمني مذكرة كان حررها في شأن مصر بالفرنساوية ، فتقبلتها منه» .

وعن كتابة مذكرات لقناصل الدول هناك ، وبينهما مراسلات لرئيس الوزراء تنم عن نشاط وتواتر للأحداث بشكل ملحوظ[٣١] .

ونتجول معًا في مقتطفات سعد حتى تاريخ القبض عليه هو ورفاقه من خلال مذكراته على النحو التالي :

٦ ديسمبر : أرسلنا مذكرات قناصل الدول .

٧ ديسمبر : أرسلنا مذكرات قناصل الدول ، بما فيها واحدة أرسلت في المساء إلى نائب الملك .

١٣ ديسمبر : رتبنا جرائد الغازيت ، والتان ، والتيمس ، يرسلوا من ١٥ الجاري .

١٤ ديسمبر : أرسلنا تلغراف مطول ٦٤٨ كلمة إلى الرئيس ولسون بباريز . . . إلخ

واستمرت هذه التفاصيل يسردها سعد بكل دقة يشعر القارئ معها بالمعايشة داخل الأحداث[٣٢] .

ويتحدث سعد أن محمد سعيد شرع في تأليف وفد ، وأنه يعمل مع إسماعيل صدقي وحسن صبري وشريعي والقصبي ومدكور وسنوت حنا[٣٣] .

ولن نقف أمام اللقاء المشهور- لسعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي مع السير ريجنالد ونجت «المعتمد البريطاني في مصر»- في الثامن عشر من نوفمبر ، لإعلام السير بعزمهم على السفر ومعرفة نية دولته في مصير مصر[٣٤] ، وعن ذلك الحوار التاريخي الذي دار بينهم ، والذي نخرج منه أن هناك رجالاً رفعوا أصواتهم عالية في وجه ممثل بريطانيا العظمى ليعلنوا للعالم أجمع أنهم ممثلون الأمة المصرية التي تستحق نيل استقلالها بكل جدارة .

وقد أدرك هؤلاء أنهم ينقصهم الغطاء الشرعي ، والذي سرعان ما أوجدوه في

حركة جمع التوقيعات «التوكيلات» ، التي أقبلت عليها الجماهير من كل حدب وصوب ، ويصف سعد كل ذلك في يومياته[٣٥] . وسرعان ما تكون الوفد ، واللافت للنظر أن سعد وصف خطوات تأليف الوفد بأنها «نهضة» ، التي ما لبثت أن أصبحت «ثورة»[٣٦] .

ويلقى سعد أول خطبة له بعد تأليف الوفد بمنزل حمد الباسل فى الثالث عشر من يناير ١٩١٩ ، أهم ما فيها حضور ممثلين لكل طبقات الأمة ، والتي أعلن فيها بطلان الحماية البريطانية على مصر ، وإصرار الوفد على استكمال طريقه نحو الاستقلال الذى يشكل حق من حقوقها الأساسية ، فهو القائل : «هل أمة كمصر ، مدنيتها أقدم المدنيات ، وفضائلها الاجتماعية التى تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل ، ظاهرة الأثر من حيث وداعة الأخلاق وحب احترام القوانين والتماثل التام فى الميول ؛ يمكن أن تُسأل فى أمر استقلالها من غير أن تحرج عواطفها المدنية بهذا السؤال؟ ويتسائل سعد مرة أخرى« وهل أبناء المدنية الفرعونية والمدنية العربية غريب عليهم أن يستقلوا فيشاطروا فى تقدم المدنية فى خطواتها إلى الأمام ؟»[٣٧] .

وفى توضيح سعد للهدف من جمع التوكيلات – السابق الإشارة إليها– ما يدل على محوريته داخل الأحداث ؛ فيردد فى ذات الخطبة «قد عزى إلينا أننا لا نطلب من الحياة إلا الدرك الأسفل ؛ أن نعيش آمنين طاعمين كاسين! فكان توكيل الأمة الجواب القاطع على هذا الاتهام»[٣٨] .

على أية حال نجد صور كثيرة كلها تدل على تضافر النخبة مع الجماهير في وتيرة واحدة لتحقيق حلم الرفض للآخر الجاثم على الصدور منذ سنوات طوال ، وهذا ما خطه سعد في يومياته الساخنة عن الأيام التي سبقت الثورة[٣٩] ، يدل ذلك دلالة واضحة على أن الحركة الديناميكية للجماهير المصرية بدأت قبل القبض على سعد زغلول بثلاثة أشهر ، إذن الحراك الجماهيري لم يبدأ بعد نفي سعد زغلول ورفاقه ، وإنما من قبل ذلك .

وجاء شتاء عام ١٩١٩ مبشراً بالتحام تام بين القائد الملهم الذي تبحث عنه

الجماهير – فتزداد دينامكيتها – وتتسارع الخطى مع منع الوفد من السفر .وما تبعها من خطبة سياسية في منتهى الخطورة أثنى عليها برونييت نفسه[٤٠] ، وبالفعل كانت تلك الخطبة مهمة للغاية حيث تحدث سعد فيها عن تفاصيل الأزمة التي تمر بها البلاد وقتئذ – ووضح الهدف الحقيقي الذي من أجله تألف الوفد وهو السعي للوصول إلى الاعتراف باستقلال مصر ، فعرج مشيراً بالكلام على مدنيتها وتقدمها واستحقاقها لنوال استقلالها ، وتحدث عن منع الوفد من السفر ، وأين نصيب مصر من مبادىء ولسون التي أعلنت ، وختم خطبته بنداء أرسله تلغرافيًا بمناسبة انعقاد مؤتمر الصلح لرئيس الولايات المتحدة ، لعرض قضية مصر أمام المؤتمر[٤١] .

وفي أثناء حوار لسعد مع البرنس كمال الدين حسين بمنزله في شهر فبراير عام ١٩١٩ ، طرح عليه سعد سؤالاً وهو ؛ هل يمكن لسمو البرنس أن يتنصل بشأن الخدمة التي أعدها لمصر وهو خارج العرش؟ ويريد سعد أن يذكّره بالعبارة التي جاءت على لسانه في خطاب تنازله عن العرش في السابع من أكتوبر عام ١٩١٧ ؛ وهي : «إني مقتنع كل الاقتناع بأن بقائي على حالتي الآن يمكنني من خدمة بلادي بأكثر مما يمكن أن أخدمها به في حالة أخرى» .

قال البرنس : «إني أعتقد أن مركز مصر الجغرافي يقضي أن تكون تحت حكم غيرها! وأحسن الأحكام هو حكم الإنجليز! وإني أثق بأن العدل الذي يقال عنه يذهب إلى أحزابهم لا بلادنا»![٤٢] .

ورد عليه سعد قائلا : «لا شيء بمستحيل ، ومدام أن الدكتور ويلسون قال وتقبلت الحلفاء قوله إنهم سيفعلون في قضايا الأمم بالحق والعدل ، وإن كل شعب يحكم حسب رغبته ومشيئته ، فيجب علينا أن نفيد منه ونعرض عليهم قضيتنا ليفعلوا فيها بمقتضى ما يقولون ، فإن فعلوا شكرنا عدالتهم ، وإن لم يفعلوا فقد قمنا بالواجب علينا ، وإلا فإن السكوت عن المطالبة بالحق ، اعتماداً على سوء الظن بهم ، يكون جريمة لا تغتفر»[٤٣] .

وقبل أقل من شهر على أحداث الثورة يسترسل سعد قائلا : «إن الفرصة الحالية

هي الفرصة الوحيدة التي يمكن أن تتخلص فيها مصر من الحكم الأجنبي ، فإذا هي لم تنتهزها كانت مسيئة في حق نفسها . وكذلك يعد مجرمًا كل من تخلف عن العمل على إتيانها!»[٤٤] . وسيكون لك أيها الأمير ، من المزايا في الاستقلال ، بمقدار مالك من الحقوق والمصالح في البلاد ، ولكن إذا تمت الحماية للأجنبي ، فلا يكون لك شيء! ولا يمكن أن تبقى أميراً ، بل يكون الأمراء هم أعضاء عائلة صاحب الجلالة ملك إنجلترا چورچ الخامس!« فما كان من البرنس إلا أنه أمن على ذلك كما يقول سعد[٤٥] . وفى اعتقادى أنه قصد بتلك الفرصة هى عرض قضية استقلال مصر أمام مؤتمر الصلح .

وفي منتصف فبراير يبوح زغلول لنفسه بكلمات كانت بمثابة غصة في حلق سعد ، في وقت كانت الثورة تختلج نفوس الكثير من أبناء جلدته وهو لايدري! فسبحان اللَّه علام الغيوب .

نفي زغلول ورفاقه : الشرارة التي أشعلت الثورة

كان زغلول يدون تحركاته هو ورفاقه بشكل يومي وشبه يومي ، واستمر على هذا المنوال في السرد ؛ حتى تاريخ ١ مارس ١٩١٩ ؛ عندما بلغه من إسماعيل صدقى أنه لا أمل في السفر[٤٦] .

وفي السادس من مارس ١٩١٩ تحدث المقابلة المشهورة بين سعد ورفاقه مع الجنرال وطسن . وما تبعها في يوم الثامن من مارس من القبض عليه ورفاقه . فيرويها على النحو التالي :

«في يوم ٦ مارس . . .وفيه حدث أن دعانا الجنرال واطسون قائد القوات البريطانية في مصر عند بسافواي أوتيل ، أنا وأصحابي أعضاء الوفد . وعندما اجتمعنا في غرفة ، خرج علينا من باب بداخلها ، وحوله بعض العساكر ، وبعد أن سلم ، قال عابسًا : «إنه نظراً لأنه علم أنكم تناقشون الحماية ، وتعرقلون سير الحكومة بتعطيل تشكيل الوزارة ، فأنذركم بأنكم إذا أتيتم ما يعطل سير الحكومة ، تقعون تحت العقاب الشديد» .

ويقول سعد فهممت بالجواب عليه ولكنه انصرف قائلا : «لا مناقشة» .

ويستكمل سعد كلامه : « فطلبنا أن نستلم نص البلاغ من بعض الضباط الذي كان يترجم قوله ، فسلمنا إياه بعد استئذانه . وعقب ذلك ، قلت لأصحابي : إن الأمر ليس مجرد تهديد ، بل هو جدي!» .

وما لبث سعد أن كتب هو وأعضاء الوفد تلغراف بالاحتجاج على هذا التصرف ؛ قالوا فيه : «إن تعطيل تشكيل الوزارة ليس من عملنا ، بل هو ناتج من منع الوفد من السفر ، ولكن السلطة العسكرية أرادت أن تلقي علينا مسئولية هذا التعطيل» .

ثم كتب سعد للجنرال وطسن جواب عتاب على المقابلة التي قابلهم بها .

ويذكر سعد أنه في يوم ٧ مارس علم من البعض ؛ أنه أُعد ٢٠ محلا في سجن طرة لعشرين شخصاً . ويشير بالقول إنه «في صبيحة ٨ منه ، أخبرني بعض الأصدقاء بأنه تقرر سجننا ولو لم يصدر منا شيء مما نهينا عنه! فلم أعبأ بهذا النبأ . «ولكن في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر ، حضر أحد الضباط الإنجليز ، ومعه وطني أسمر اللون كمترجم ، وقال لي : إنك مدعو لأوتيل سافواي ، فخرجت معه ، حيث وجدت محمد باشا محمود واقفًا أمام المنزل المجاور لنا ، بجانب أوتومبيل وبعض العساكر . فأركبنا معا في الأوتومبيل إلى قصر النيل . وكان من خلفنا في أتومبيل آخر إسماعيل صدقي باشا» .

« . . . وبعد قليل أُحضر حمد باشا الباسل . . .» [٤٧] .

أخذ يسرد زغلول تفاصيل كثيرة لوصف المكان والمعاملة وتنقلاتهم . . . إلخ لا داعي لذكرها هنا إلى أن وصلوا لبور سعيد وانتهى بهم المطاف لمقر نفيهم بقلعة بولفارستا بمالطة ؛ في صبيحة يوم ١٣ مارس ١٩١٩ . ويتحدث عن تحملهم لمشاق الغربة ، والسفر والبعد عن الأهل والوطن[٤٨] .

وقد سردها سعد بعد عدة أيام من نفيهم ، وبالتحديد في ٢٦ مارس عندما كان

بقلعة بولفارستا بمالطة- التي وصلها سعد ورفاقه فى الثالث عشر من شهر مارس ، وظل طوال هذه الفترة لا يصل لعلمه ثمة أخبار عن مصر لانقطاع السبل ، حتى بدأت تصل إليهم التلغرافات شيئا فشيئا (٤٩) .

«ومكثنا عدة أيام لا نعلم من حوادث مصر شيئًا ، ولكن أتت أخبارها شيئًا فشيئًا من التلغرافات التي تنشرها هنا ، ومن جريدة التيمس ، وأخيراً من جريدة المقطم» .

ويعلق سعد قائلا : «واندهشت جداً من هذه الحوادث ، لأننا لم نكن نتصور حدوثها ، خصوصًا بالكيفية التي حدثت بها !» .

يقول سعد : «أخبار ما حصل من المظاهرات عقب قيامنا ومن أجل إبعادنا ، ملأت قلوبنا سروراً وابتهاجًا ، حتى كادت تحبب السجن إلينا! وأفعمنا شكراً لأمتنا ، وهانت علينا نفوسنا نفدي بها هذه البلاد . نعم مازج هذا السرور كثير من الأسف على النفوس التي أزهقت ، والدماء التي أُهرقت .

«ولكن أي مجد قام بغير هذه الضحايا؟ وأي أمة بلغت مناها بغير أن يخاطر أبناؤها بأعز ما لديهم؟» ، ويقول في موضع آخر «ولقد ساءنا أن تداخل بعض الأشرار في الحركة وارتكبوا جرائم فظيعة . ولكن المسئول عن هذا الاختلال هم الذين أساءوا السياسة من قبل . وزعم بعض رجال السياسة في مجلس العموم أننا هددنا السلطان ، وعطلنا تشكيل الوزارة! ولكن سياستهم الخرقاء هي التي ترتب عليها هذا التعطيل ، لأنهم منعونا عن السفر لإبداء مطالب قومنا ، واستعفت الوزارة الرشدية بسبب هذه المسألة(٥٠) . فإن كان يعد رفع رغبات الأمة إلى سلطانها تهديدا له ، فنعم هذا التهديد! ومن الفخر الكبير أن تتحمل مسئوليته أمام أية سلطة شرعية» .

«ولقد توهم حزب الاستعمار أنه سيبتلع مصر بمجرد أن يبعد بعض أبنائها من بلادهم ، ولكن ساء ما توهم! فإن البلاد من أقصاها إلى أقصاها تطلب الاستقلال ، ولا تحمل للطامعين فيها إلا كل حقد وضغينة(٥١) .

كان وصول أخبار المظاهرات والإضرابات التي اشتعل لهيبها في جميع المدن والقرى المصرية ، بداية الترجمة الحقيقة لغضبة الجماهير المصرية ، التي أذهلت سعد ورفاقه وفاقت جميع التصورات والتكهنات(٥٢) ، فكان حدوثها على هذه الكيفية أكبر دليل على مكانة زغلول لدى جماهير الشعب ، فكان القبض عليه الشرارة التي أشعلت الثورة المصرية ، دون أية ترتيبات مسبقة لتعلن ميلاد ثورة شعبية حقيقية ، لم يعبأ مشعلوها برصاصات الاحتلال المصوبة نحو صدورهم .

ويستنكر زغلول ما قيل عن أن للألمان إصبعًا في حركة مصر ، ويؤكد أن : «هذه الحركة منبعثة من نفس مصر ، وما كنا نحن نظن أن نبلغ ما بلغته لحد الآن»(٥٣) . ونسب زغلول ما حدث لأمته ، ومن ثم وجد نفسه تهون عليه ليفدي هذه البلاد التي أثبت شعبها قدرته وعظمته أمام محتل مدجج بالسلاح(٥٤) .

ولا ينكر سعد الزعيم الإصلاحي الذي خرج من عباءة الإمام محمد عبده ومدرسته الإصلاحية ، أسفه على النفوس التي أزهقت والدماء التي أرهقت ، ولكن يواسى سعد نفسه قائلا : «ولكن أي مجد قام بغير هذه الضحايا ؟ وأي أمة بلغت مناها بغير أن يخاطر أبناؤها بأعز ما لديهم ؟» (٥٥) .

ولنا أن نقول : «إن طبيعة زغلول النابذة للعنف هي التي كانت وراء دهشته من أحداث الثورة الساخنة ، ومن هنا كان قوله : «كان من طبيعة الحوادث التي حصلت في مصر بعد قيامنا ، فإنها جاءت قارعة شديدة فوق ما كان يقدر المقدرون»(٥٦) ، ورمى على السلطات البريطانية مسئولية ما حدث ، فاعتبر سياستهم الخرقاء كانت سببًا في تعطيل تشكيل الوزارة ، وفي منع الوفد من السفر للتعبير عن مطالب الأمة المصرية(٥٧) .

على أية حال اعتبر زغلول هذا الوضع الذي صارت عليه مصر أفضل وأبلغ بيان أمام العالم أجمع ، ويصف ذلك بالقول : «وأصبحت قضيتنا في نقطة أعلى وأسمى من النقطة التي كنا نتعشم وضعها فيها بعد سفرنا»(٥٨) . وهنا اعتراف من زغلول بتفوق الزعامة الشعبية المصرية اعترافًا دوما يردده وسُجل فى كلماته المأثورة «افتخر

بأن أكون على رأس أمة حية شاعرة مفكرة ؛ وهى منزلة لا ينبغى لرجل أن يطلب لنفسه أعلى منها»[٥٩] .

بل وزاد على ذلك بأنه اعتبر مهمته ورفاقه قد انتهت ، فقال : « فالآن نعتبر مأموريتنا قد انتهت ، ونستقبل كل قضاء على أنفسنا بغاية الرضى . وسواء أتيحت لنا العودة إلى وطننا العزيز أو لم تتح ، فقد أعززناه ، وأعززنا ، وخدمناه فجزانا أحسن الجزاء ، ولم يعد الظالمون يستسهلون اهتضامه ، ولا الطامعون يستبيحون التهامه»[٦٠] .

وبعد شهر من تدافق الأحداث ، يؤكد سعد على مايتمناه وهو أن تنال أمته الاستقلال الذي تستحقه ، ويرى في عودته لها بداية طريق آخر لخدمتها بكل طاقته ، وفي عدم عودته تضحية واجبة منه لأمته[٦١] .

ولكن سرعان ما يجنى سعد ورفاقه أولى ثمرات تلك الثورة العظيمة ، عندما وصله تلغراف روتر الذي حمل البشرى بالإذن للسفر خارج القطر لكل المصريين ، والإفراج عن سعد ورفاقه[٦٢] . والذي اعتبره سعد «أول انتصار للحق على القوة ، وأول ثمرة من ثمرات اتحاد الأمة»[٦٣] .

ويشير زغلول لعبارات السرور التى تحدث بها حمد باشا الباسل قائلا : «اليوم اندرجت حياتنا في حياة المجموع ، واندمجت شخصياتنا في الأمة ، فلا نفكر في أنفسنا ولكن في بلادنا ، وقد كان الطريق غير واضح من قبل أمامنا ، وقد أصبح الآن جليًا . فما علينا إلا أن نستمر في سلوكه إلى النهاية التي نرومها ، ولا ينقصنا الإقدام ، فإني ما رأيت رجلا مثلك في الإقدام ، عندما يعقد العزم على الشيء يأتيه . . . نعم ، إنك قبل الإقدام تدقق فى الشيء تدقيقًا شديداً ، ولكن بعد أن تعطيه حقه من التدقيق والإمعان ، فلا يصدك عنه شيء مهما كان خطيراً» . وتوصل سعد إلى حقيقة أنه يلزم التفكير في البلاد وتنحية النفس جانبا ، واعترف بأن الطريق في الماضي لم يكن واضحا ، ولكنه بعد كل ما حدث أصبح ظاهراً جليًا . وأوصى بضرورة الاستمرار فيه للنهاية[٦٤] .

وفي صباح يوم ١٢ أبريل ورد على سعد تلغراف من مصر بسفر سعد ورفاقه إلى

لندن مع ١٨ مصريًا آخرين [٦٥] .

وعندما ذهب الحاكم العام إلى مقر سعد في القلعة ، وكان معه محمد محمود ، قال الحاكم عبارة مهمة «إنكم أشعلتم النار في مصر ثم طرتم إلى هنا!» ، وكان رد محمد محمود عليه : «كلا ، إننا قبضنا على زمام الأمور مدة وجودنا ، ولم يشعل النار إلا القبض علينا ونفينا من غير سبب»[٦٦] .

كان الشغل الشاغل في ذلك الوقت عند سعد هو التفكير «فى ماذا يكون من أمرنا في لوندرة ، ثم في مؤتمر الصلح !»[٦٧] .

وهنا تبدأ مرحلة أخرى في سجل مذكرات سعد تبدأ بالسفر ومن ثم توزيع أدوار الدعاية للقضية المصرية في الخارج – ومرورا بمحادثات ملنر والانتقال بين لندن وباريس ، والعودة إلى مصر ، وتصاعد الحركة الوطنية ، وما أسفر عنها من نفي مرة أخرى لجزيرة سيشل ثم إلى جبل طارق .

زعامة سعد : كما يراها البعض

بناء على كل ما سبق يبقى الإجابة على السؤال المطروح دوما على الساحة العلمية ؛ وهو هل كان وجود سعد على رأس ثورة لها أهميتها الكبرى ليس على المستوى الوطني فقط ، بل وعلى المستوى العربي والأفريقي والآسيوي أيضًا ، هل كان عن استحقاق وجدارة لمكانة سعد المعلومة عند السواد الأعظم من المصريين لما اشتهر به من مواقف وطنية عديدة تحسب له؟ أم كانت تفضل من الجماهير المصرية– على زغلول – التي أشعلت بحماسها ثورة من أعظم الثورات القومية؟

من المعلوم أن تاريخ الأمم لا يصنعه شخص بمفرده ، وأن الشعوب هي التي تصنع مجدها ، فكما أن الزعامة السياسية لا تنشأ من فراغ[٦٨] إنما هي نتاج عدة تفاعلات على كافة الأصعدة السياسية ، والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، كذلك فإن الجماهير التي تخرج في غضبة كبرى لا تنشأ من فراغ فهي أيضًا نتاج الكثير من التراكمات والتناقضات التي اتسمت بالحدة عميقة الجذور . ومن ثم

فكانت ثورة ١٩١٩ معبرة عن شجون أمة رزحت تحت سلطان القهر سنوات طوال .

ومن خلال ما سطره سعد بخط يده في يومياته ، استطعت التوصل لحقيقة مفادها ، أن الثورة المصرية جاءت معبرة عن وعي جماهيري حقيقي متلاحم مع بروز قيادة وطنية تحلت عبر سنوات طوال بعدة خصال اشتهر بها من قوة حجة ومقدرة فائقة على الخطابة دوما تتطلع إليها أنظار الجماهير ، فخلقت في نفوس المصريين مكانة كبيرة ، فقد رأوا فيه زعيمًا ممثلاً لآمالهم وتطلعاتهم ، ووجدوا فيه ذلك الباشا المصري الفلاح الأصيل الذي خرج من قرية إبيانة ، وتعلم بالأزهر ، وكان من أتباع الإمام محمد عبده ، ثم أصبح أفنديًا ، فمحاميًا فصيحًا ، فناظرًا للمعارف ؛ ثم الحقانية ، فزعيمًا للمعارضة في الجمعية التشريعية ، فمدافعًا عن حق مصر في تقرير مصيرها عندما وضعت الحرب أوزارها .

فعندما نقرأ ما سطره – على سبيل المثال – عبد القادر حمزة عن شخصية سعد القوية التى يملك بها كل من يحدثه والتى اعتبرها جزءًا من زعامته فيقول : «تحدثه لحظة وأنت لم تعرفه من قبل ، فترى فيه مثالاً مجسمًا من عظمة النفس وقوة العقل . بنفسه العظيمة يعطيك كل معاني النبل ومتانة الخلق واستقامة الضمير ، وبعقله القوي يعطيك كل ما تستطيع أن تدركه من بعد الفهم وأصالة الرأى وسلامة المنطق . . . فلا عجب أن كانت زعامته التى هى ثمرة من ثمار شخصيته صحيحة ثابتة» . وزد على ذلك التحليل لشخصيته ، أن سعد امتاز فى جميع أدوار حياته «بأنه من رجال التقدم ؛ الذين يسيرون أمام جيلهم ويدفعون إلى الأمام بكل جيل يعاشرونه»[٦٩] .

أليست صفحات الجرائد يوم تشييع جنازة سعد زغلول والتى رسمت صورة لكافة طبقات الشعب المصري وهم يشيعون زعيمهم خير دليل على تلك الزعامة . فقد احتشدت الجموع الهائلة صفوفًا متراصة جنبًا إلى جنب ، حتى ضاقت القاهرة بأهلها ؛ بل وضاقت بالقادمين إليها من كل مكان خارج أسوار عاصمتها . حتى وُصف يوم تشييع جثمانه فى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر أغسطس بكونه

«يوم البعث» فى مصر ، لخروج الناس فيه لواجهة واحدة وهى بيت الأمة»[٧٠] .

أليس اجتماع العديد من الصحف الأجنبية على زغلول بأنه كان زعيم مصر الأوحد فى جهادها للاستقلال ؛ دليل زعامة ؟ لقد ذهب البعض بالقول أيضا أنه كان زعيماً للشرق بأجمعه وللأقطار العربية ، وجاءت الأدلة حين ذاع خبر وفاة سعد زغلول «فأقام كل بلد عربي له مأتماً . وأقيمت الصلوات على روح الفقيد فى سوريا وفلسطين والعراق . وغيرها من الأقطار العربية ونظمت حفلات ألقيت فيها الخطب والقصائد تأبيناً لفقيد مصر والشرق واحتجبت الصحف العربية يوماً على الزعيم» . ناهيك عن رسائل التعزية التى هطلت على مصر من الرجال الرسميين والأفراد فى الأقطار العربية [٧١] .

* * *

وفي الختام نحن أمام كفتي ميزان تعادلتا ، من وجهة نظري ، شعب له أحلامه وتطلعاته ولديه القدرة الفائقة لصنع المعجزات ، ورجل لديه كل مقومات القائد الزعيم ، وعنده رصيد وطني لا يخفى على أحد ، فكانت القارعة التي أذهلت مفجروها أنفسهم .

وإن أُخذ على تلك الزعامة العديد من الملاحظات عند البعض[٧٢] ، مثل أنها كانت زعامة نخبة أو صفوة اجتماعية تمثلت في طبقة البرجوازية المصرية وليدة العهد والتي كانت لها خصائصها التي ميزتها . والتي قبلت التعايش مع الآخر «المحتل» ، وكانت ترى الحل في اتفاق بين الطرفين ، واتسمت بالحذر الشديد وسلك دروب المصلحين . فجاءتها غضبة الجماهير على هذا النحو غير المتوقع تجاوزاً لهذه القيادة الحذرة فكانت المفاجأة التي أدهشت الجميع .

على أي الأحوال ، فإن هذا البركان الذي تفجر صبيحة التاسع من مارس واستمر في طول البلاد وعرضها لفترة ليست بالقصيرة ، شاملاً المدن والعواصم والقرى بالوجهين البحري والقبلي وكل شبر على أرض مصر ؛ والذي عبر عنه الكثير[٧٣] بمنتهي الدقة ، كان تنفيثاً للجماهير المصرية التي طالما بحثت لها عن منفذ

لتفريغ غضبها ، والذي حال بينه وبينها تلك الروح الزغلولية المتجهة دوما للتهدئة ، فهي طبيعة إنسانية بالدرجة الأولى من وجهة نظري وليست ضعفا في بنية سعد الوطنية ، جاء تنفيثها معبراً عن قمة غضبها ، وكاشفًا لمشاعر إنسانية مكبوتة طوال عشرات السنوات منذ أن وطأ الاحتلال أرض الكنانة ، فكان نزع قضبان السكك الحديدية ، وتحطيم القطارات وأعمدة التلغرافات ، وإضرام النيران ، والهتاف بالشعارات ، وسقوط الضحايا . . . إلخ من مظاهر الثورة المصرية المجيدة خير دليل على يقظة روح قومية جديدة دبت في كيان الدولة المصرية .

ولنا أن نقول أن تلك الوقائع كانت تنم عن ثورة جماهيرية عفوية قامت دون أدنى «تدبير سابق أو تنظيم محكم كرد فعل لاعتقال قادة حركة الاستقلال ممثلي الشعب المصري المعترف بهم ، الذين نجحوا في إثارة حماس الجماهير وجذبهم نحوهم ، وخلق الظروف المواتية لتحركهم حتى من غير أن يكون للقادة أنفسهم هدف إشعال الثورة» (٧٤) .

وتستحضرنى مقولات أريد أن أختم بها بحثي ؛ الأولى ، جاءت على لسان عباس محمود العقاد فى كتابه(٧٥) : «وسعد كان خير زعيم فى مصر ، لأنه فلاح من أمة الفلاحين . . . وحسبك أن تعمد إلى نموذج الفلاح المصري فتضاعف ما فيه من خلائقه وعاداته وخصائص بيئته ؛ لترى أمامه سعداً ماثلا فى عظمته المصرية . . . وقد اجتمعت لسعد من مزاياه الشخصية ؛ ومن توفيقات العصر فى حياته ؛ صفة الزعامة الواجبة على المصريين ، أو الزعامة الملائمة لأطوار النهضة الأخيرة فى هذه الأمة» .

والثانية ، جاءت على صفحات العدد التذكاري لجريدة البلاغ(٧٦) ألا وهى : «إن سعداً الميت أقوى من سعد الحي ؛ والغاية التى بذل حياته فى سبيلها أكثر تقديساً عند المصريين بعد وفاته» ، وهذا ما ظهر جليًا فى جميع أطوار القضية المصرية ؛ حتى نالت مصرنا الحبيبة استقلالها الفعلي .

الهوامش

(١) حسين مؤنس ، د . دراسات في ثورة ١٩١٩ ، ذاكرة الكتابة ، ٢١٠ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠١٨ ؛ عبد العظيم رمضان ، د .مذكرات سعد زغلول ، الجزء الأول ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ ، لطيفة محمد سالم ، مذكرات سعد زغلول ، الجزء العاشر ، مركز تاريخ مصر المعاصر ، دار الكتب والوثائق القومية ، ٢٠١١ . وقد زاد على ذلك القول أ . د .رءوف عباس حامد ، الذي أرجع السبب في رداءة خط سعد – والذي يصعب قراءته فيبدو في أحيان كثيرة كأنه تصويب إلى حرص سعد على أنه في حالة ما وصلت هذه اليوميات إلي أي أشخاص سواء كانوا من– خدمه أو أرقاربه وربما أصدقائه فلا يستطيعون قراءته ، راجع ، رءوف عباس ، البحث عن مقدمات ١٩١٩ ، في مذكرات سعد زغلول ، مجلة الهلال ، مايو ١٩٩٤ . وأن صح هذا القول فهو أكبر دليل على أن سعد كان ينفس عن خلجات نفسه في هذه اليوميات ، ومن ثم جاء تميزها عن غيرها من المذكرات بالشفافية العالية .

(٢) لمعرفة أهمية المذكرات السياسية في دراسة تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، راجع الدراسة التي نشرها أ . د . عبد العظيم رمضان ، تحت عنوان ، مذكرات السياسيين والزعماء في مصر ١٨٩١– ١٩٨١ ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

(٣) وهم : أ .د . عبد الخالق لاشين ، د . حسين مؤنس ، أ . د . عبد العظيم رمضان ، أ . د . رءوف عباس حامد ، أ . د . لطيفة محمد سالم .

(٤) أرشيف دار الوثائق القومية ، محافظ عابدين ، محفظة ، ٣٠٥ .

(5) Bein, Joel, And Lockman, Ziachary, Workers On NileNationalism, Communism, Islam, And The Egyptian Working Class 1882-1954, London, 1988 , P.,84.

(٦) سلامة موسى ، تربية سلامة موسى ، د .ت ، ص ١١٢ .

(٧) عبد الرحمن الرافعي ، ثورة ١٩١٩ ، تاريخ مصر القومي (١٩١٤–١٩١٩) ، ص ٩٧ .

(٨) نفس المصدر ، ص ١١٠ .

(٩) عبد الخالق لاشين ، سعد زغلول وثورة ١٩١٩ ،تقديم ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الطبعة الثانية ، دار الكتب والوثائق القومية ، ، ٢٠٠٩ ، ص ٤٨ .

(١٠) مذكرات سعد زغلول ، الجزء الخامس ، تحقيق ، عبد العظيم رمضان (د .) ، قراءة سامي عزيز وآخرون ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ ، ص ص ٨١ ،٨٢ .

(١١) مذكرات سعد زغلول ، الجزء السادس ، طبعة عام ١٩٩٣ ، ص ١١٥ .

(١٢) نفسه ، ص ص١٢٠–١٢٢ .

(١٣) مذكرات سعد ، الجزء الثامن ، ص ص ١٣٤ –١٣٥

(١٤) مذكرات سعد ، الجزء السادس ، في ٢٣ / ٨/ ١٩١٧ ، ص ٢٤٠ .

(١٥) نفسه ، ص ٢٠٢ .

(١٦) نفسه ، ص ٢٤٠ .
(١٧) مذكرات سعد ، الجزء السادس ، في ٢٣ / ٨/ ١٩١٧ ، ص ص ٢٤٠ -٢٤١ .
(١٨) مذكرات سعد ، الجزء السابع ، ص ص ٣٣ -٣٤ .
(١٩) مذكرات سعد ، الجزء الثامن ، في ٢٤/ ٥/ ١٩١٨ ،الجزء السابع في ٢٧/ ٥ / ١٩١٨ ، ص ٣٦ .
(٢٠) نفسه ، في ٢٤/ ٥/ ١٩١٨ ، ص ١٨٦ .
(٢١) نفسه ، ص ١٨٧ .
(٢٢) نفسه .
(٢٣) مذكرات سعد ، الجزء السابع ، ص ٩٩ .
(٢٤) نفسه ، ص ١٥٣ .
(٢٥) نفسه ، ص ١٥٤ .
(٢٦) نفسه .
(٢٧) نفسه ، ص ١٣٧ .
(٢٨) نفسه ، ص ١٥٧ .
(٢٩) نفسه ، ص ١٦٠ .
(٣٠) نفسه ، ص ١٦١ .
(٣١) نفسه ، ص ١٨٢ .
(٣٢) مذكرات سعد ، الجزء التاسع ، طبعة ١٩٩٨ ، ص ص ١٧-١٨ .
(٣٣) مذكرات سعد ، الجزء السابع ، ص ص ١٦٦ .
(٣٤) نفسه ، ص ١٦١ .
(٣٥) مذكرات سعد ، الجزء السابع ، ص ١٦٧ .
(٣٦) نفسه .
(٣٧) مذكرات سعد ، الجزء السابع ، ص ص ٢٠٧ -٢١١ .
(٣٨) نفسه ، ص ٢١١ .
(٣٩) نفسه ، ص ١٨٢ .
(٤٠) نفسه ، ص ١٦٣ .
(٤١) نفسه ، ص ٢٠١ .
(٤٢) نفسه ، ص٢٠٥ .
(٤٣) نفسه ، ص ٢٠٦ .
(٤٤) نفسه ، ص ص ٢٠١ -٢٠٧ .
(٤٥) نفسه ، ص ٢٠٦ .
(٤٦) مذكرات سعد ، الجزء التاسع ، ص ٢٨ .
(٤٧) نفسه ، ص ٥٦ .

(٤٨) نفسه ، ص ٦٢ .
(٤٩) مذكرات سعد ، الجزء التاسع ، ص ٦٨ .
(٥٠) نفسه ، ص ٧٢ .
(٥١)نفسه ، ص ٧٣ .
(٥٢) نفسه ، ص ٧٤ .
(٥٣) نفسه ، ص ص ٧٠ – ٧١ .
(٥٤) نفسه ، ص ص ٧٢ – ٧٣ .
(٥٥) نفسه .
(٥٦) نفسه .
(٥٧) نفسه .
(٥٨) نفسه ، ص ص ٧٩ –٨٠ .
(٥٩) البلاغ الأسبوعي : عدد خاص ، فى ٢ سبتمبر ١٩٢٧ ، ص ٢٧ .
(٦٠) مذكرات سعد : الجزء التاسع ، ص ص ٧٩ – ٨٠ .
(٦١) نفسه ، ص ٨٢ .
(٦٢) نفسه ، ص ٨٧ .
(٦٣) نفسه ، ص ٨٨ .
(٦٤)نفسه ، ص ٩١ .
(٦٥) نفسه ، ص ٩٥ .
(٦٦) نفسه ، ص ص ٩٧ –٩٨ .
(٦٧) نفسه ، ص ٩٨ .
(٦٨) رءوف عباس حامد : زعامة ثورة ١٩١٩ ؛ رؤية تحليلية ، بحث منشور ضمن ندوة سبعون عاما على ثورة ١٩١٩ ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مارس ١٩٨٩ .
(٦٩) البلاغ الأسبوعي ، مصدر سابق ، ص ص ٣ــ٤ .
(٧١)نفسه ، ص ١ .
(٧١)نفسه .
(٧٢) رءوف عباس حامد ، مرجع سابق .
(٧٣) راجع : الأيام الحمراء ، مذكرات الشيخ عبد الوهاب النجار عن ثورة ١٩١٩ ، إشراف ودراسة ، أ . د . أحمد زكريا الشلق ، إعداد وتحقيق ، د . مصطفى الغريب ، مركز تاريخ مصر المعاصر ، دار الكتب والوثائق القومية ، ٢٠١٠ ؛ أيضًا ، محمد مظهر سعيد ، سجين ثورة ١٩١٩ ، ذاكرة الكتابة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠١٨ .
(٧٤) عبد الخالق لاشين ، مرجع سابق ، ص٢٠٧ .
(٧٥) عباس العقاد ، سعد زغلول زعيم الثورة ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، ٢٠١٣ .ص ١٥٧ .
(٧٦) البلاغ الاسبوعى ، مصدر سابق .